الفصل الرابع

تلاشي التنافس الدولي حول شبه الجزيرة العربية وتسوية الأوضاع بين القوى السياسية المتصارعة حسب الإمكانيات والقدرات الذاتية لتلك القوى

بعد استسلام الحامية التركية في المدينة المنورة ، أمر الملك حسين ابنه عبدالله بالتوجه بالقوات الضاربة التي تحت يده ، المدربة والمزودة بالحديث من الأسلحة والذخيرة والعتاد ، مقارنة بما يملكه الطرف الآخر ، أمره بالتوجه إلى الخرمة لفرض سيطرته على المنطقة ، وربما أبعد من حدود تلك المنطقة موضوع النزاع ، بقوة السلاح . وكان موقف بريطانيا تجاه ذلك النزاع مؤيداً للحسين . ففي المؤتمر الذي عقد في القاهرة برئاسة وزير الخارجية البريطانية لورد كيرزون في شهر مارس ١٩١٩م (جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ) لبحث قضايا الشرق الأوسط ، ومن بينها ، هذا الموضوع ، أوضح الوزير موقفه المؤيد لمطالب الملك حسين و((إن السياسية البريطانية في جميع القضايا العربية سياسة حسينية . الأمر الذي يبرر ضرورة الاقتناع بانتصار الحسين حال صدامه مع عبدالعزيز بن سعود ، إذا ما حسمت مشكلة الخرمة لصالحه وإلا فإن العواقب ستكون خطيرة)) (١٩١)

وقد أيد جميع الحاضرين الوزير في رأيه ، باستثناء فلبي ، إلا أن رأيه لم يؤخذ به نظراً لأن القرار أخذ بالتصويت ، ففاز بالأكثرية .

إلا أنه يبدو أن حكومة الهند البريطانية التي تدرك حقائق الوضع أكثر من غيرها ، قد حاولت إقناع السلطات البريطانية بالتريث ، ومن ثم اتصل المعتمد البريطاني في جدة بالملك حسين وأبلغه ((رسالة حكومته التي ضمنها النصح بالتريث فيما عزم عليه ، والاقتراح بانسحابه إلى الطائف حيث يوافيه عبدالعزيز بن سعود للتفاهم على ما ينهي الخلاف)) (١٩٢) لكن الملك حسين استخف بهذا النصح وقال موجهاً حديثه إلى حسين روحي ، سكرتير المعتمد البريطاني ، والذي سلمه الرسالة ، قائلاً : ((اذهب وقل

لهم إنه لا حق لهم بالتدخل في شؤوننا الداخلية ، فنحن أحرار نفعل ما نريد))(١٩٣)

ومن جانبه فإن الأمير عبدالعزيز لم يعد بإمكانه تجاهل هذا التهديد الخطير (توجه قوات عبدالله صوب منطقة النزاع) لمنطقة يلح سكانها عليه بطلب النجدة ، ويلح عليه رعاياه بضرورة مساعدة إخوانهم ، وكان قد وعد بأنه في حالة محاولة الهجوم مرة رابعة فإنه سيتصدى بنفسه للدفاع عن المنطقة . وبالفعل فقد أعد الحملة وخرج من الرياض متوجهاً إلى هناك ومتجاهلاً الإنذار البريطاني(١٩٤).

وفي أثناء ذلك كانت قد وصلت إلى هناك قوات من الإخوان ، بناء على أمر عبدالعزيز ولم تنتظر تلك القوات وصوله ، فقامت بهجوم مباغت (٢٥ شبعان ١٣٣٧هـ/ ٢٥ مايو ١٩١٩م) على قوات الشريف حسين حيث أبيدت عن آخرها ، تقريباً ، كما استولى المهاجمون على جميع معدات هذه الحملة من أسلحة وذخائر ومؤن ، ونجى الشريف عبدالله بن الحسين مع عدد قليل من قادته بصعوبة بالغة ((ووصل ابن سعود إلى مكان المعركة بعد يوم أو يومين فتوج النصر الساحق بضم الواحة إلى ملكه))*(١٩٥)

* يذكر أمين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية جـ٢ ص ٩٣ أن المعتمد البريطاني في جدة بعث سكرتيره ، ابن سراج ، برسالة للأمير عبدالعزيز من الحكومة البريطانية جاء فيها ((ترجو حكومة جلالة الملك أن تعودوا إلى نجد وتتركوا تربة والخرمة منطقة حرة غير مملوكة لأحد حتى عقد الصلح وتحديد الحدود ، وإذا لم تعودوا فإن حكومة بريطانيا تعد كل اتفاق بينكم وبينها ملغي ، وتتخذ ما يلزم من تدابير ضد حركاتكم العدائية ، وتأسف كل الأسف لما حصل بين أصدقائها ، وكانت ترجو أن لا يقع ذلك)).

ويذكر أمين سعيد أنه اعتمد في ذلك على ما سمعه من الشيخ عبدالله سراج ومن الشريف عبدالله ابن محمد ، ومن الشيخ كامل القصاب وكان ثقة واسع الاطلاع ويذكر أن هذا الكتاب سلم للأمير عبدالعزيز في ١٥ رمضان ١٣٣٧هـ.

إذا كانت النتائج التي ترتبت على معارك الشنانة والبكيرية ، منذ خمسة عشر عاماً ، قد مهدت السبيل لإنهاء الوجود العثماني في وسط الجزيرة العربية (نجد) ومكنت الأمير عبدالعزيز من بسط سيطرة فعلية على تلك المنطقة (القصيم) وقلصت مكانة وهيبة خصمه الأمير عبدالعزيز بن متعب ابن رشيد ، فإن معركة تربه هذه ، قد أنهت بالفعل أسطورة قوة الملك حسين وقدرته على فرض سيطرة حقيقة على أرض الواقع ، بل وأكثر من هذا فإن هذه المعركة ، في رأيي ، تعتبر بداية تسوية الأوضاع بين القوى السياسية المتنافسة على الساحة (الأمير عبدالعزيز بن سعود ، والملك حسين ، وابن رشيد ، والإدريسي) كل حسب إمكانياته الحقيقية وقدراته الذاتية والقيادية ، بعد أن تقلص التدخل والاهتمام الدولي بما يجري على الساحة الداخلية لشبه الجزيرة العربية ، بعد زوال ظل الدولة العثمانية بسقوطها النهائي بعد الحرب ، وانشغال بريطانيا بإعادة ترتيب أوضاع المناطق التي تعتبرها حيوية بالنسبة لمصالحها (العراق والأردن وسوريا) بشكل خاص .

صحيح أنه ، كما يبدو ، أن السياسة البريطانية تجاه الأوضاع في الجزيرة العربية كانت تتجه إلى محاولة تثبيت الأوضاع السياسية القائمة ، واستبعاد قيام كيان سياسي موحد . وحتى ابن رشيد ، الحليف السابق للأتراك الذي كان ينتظر أن يسقط تلقائياً بعد زوال سنده وحليفه ، الدولة العثمانية ، إلا أن السلطات البريطانية أخذت تبدى شيئاً من الميل نحو تثبيت وضعه فـ ((كوكس* يعتبره عاملاً مفيداً في المحافظة على توازن القوى في الصحراء . ولقد استنتج ابن سعود بلاشك أن مركزه سيصبح حرجاً بسبب تحدي حاكم

* الذي أصبح المندوب السامي البريطاني في العراق .

شمر ، منافسه القديم ، بتشجيع من الإنكليز . . . لأن مبعوث ابن رشيد كان فعلا في بغداد يتفاوض مع جر ترودل آنذاك)) (١٩٦)

وفي هذا المنحى أيضاً، فان بريطانيا ربما شجعت -لو توفرت الظروف الملائمة- لإقامة دويلة بين العراق ونجد ، مستغلة طموحات بعض رؤساء العشائر هناك حيث يذكر أمين الريحاني (الذي كان موجوداً في معسكر عبدالعزيز أثناء مؤتمر العقير ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م) أن المندوب السامي البريطاني ، كوكس ، قد صحب عند قدومه لهذا المؤتمر شيخ العمارات في الشمال ، فهد بك الهذال ((لأنه كما قيل خبير بالحدود بين العراق ونجد ، والحقيقة إن السياسية الإنكليزية كانت ترجح إعطاءه بعض الاستقلال في ناحيته أو تؤسس مشيخة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن))(١٩٧)

أما موقف بريطانيا تجاه النزاع بين الزعيمين الكبيرين الملك حسين والأمير عبدالعزيز فهو بكل وضوح إلى جانب الأول ، كما سبق أن رأينا ، إلا أن الحسين لم يكن قادراً على استيعاب الحقائق الموضوعية لا الإقليمية ولا الدولية السياسية والاستراتيجية في المنطقة . فمن ناحية علاقته مع الأمير عبدالعزيز بن سعود ، جاره متنامي القوة ، والذي أبدى ، منذ بدء الحرب ، على الأقل ، رغبة في التفاهم ، وإقامة علاقات جوار وتنسيق واحترام متبادل ، إلا أن الحسين قابل ذلك باستخفاف واستعلاء لا ينم عن حنكة سياسية . فأثناء الحرب استغل الإمكانيات التي وفرتها له بريطانيا بمحاولات كسب ولاء القبائل القاطنة في المنطقة بين الجانبين ، إلا أن ذلك لم يكسبه ولاء تلك القبائل لأسباب تاريخية (وايديولوجيه) وشخصية ، مقارنة بين شخصيتي الزعيمين . ففي الوقت الذي كان ابن سعود يحظى

باحترام عظيم وشخصية (كرماتزمية) مؤثرة لكل من يتعامل معه أو يقابله، كان الملك حسين يحاول التقليل من قدرة وأهمية هذا الرجل. وحسب تعبير الكوماندر هوغارت في مذكرة بتاريخ ١١ فبراير ١٩١٧م (١٩ربيع الآخر ١٣٣٥هـ) ((إن ثقة الملك حسين حول ابن سعود تستند إلى الاعتقاد: -

١- بأن الأخير يقتصر على العشائر (السعودية) .

٢- قلة موارده المالية . ويعتقد حسين أنه يستطيع أن يشتري ابن سعود في أي وقت (بأموالنا طبعا كما هو معلوم))[١٩٨]

والأهم من هذا ، وربما الأخطر ، أن الملك حسين لم يكن لديه هدف استراتيجي واضح للمناطق التي يسعى لتثبيت سيطرته عليها ، ولا كيفية الوصول إلى هذا الهدف . فمنذ بدء ثورته أواسط سنة ١٩١٦م ومن ثم إعلان نفسه ملكاً لم يعترف بذلك أحد ، بل إن الحلفاء كانوا واضحي الموقف تجاه ذلك ، واعترفوا به ملكاً على الحجاز فقط . وحتى هذا الإقليم لم يكن الحسين -كما يبدو- يعرف أو يريد أن يعرف حدوده الإقليمية من جهاته الثلاث (الشرق والشمال والجنوب) ولكنه يدرك ، كما يبدو ، أن الحجاز لا يمكن أن يشكل كياناً سياسياً مستقلاً بالاعتماد على إمكانياته الاقتصادية الذاتية ، ولهذا كان يرنو ببصره نحو مناطق وأقاليم هي مركز اهتمام وسياسات استراتيجية مرسومة سلفاً لمصالح حيوية للدول الكبرى المعنية بالمنطقة (بريطانيا وفرنسا) . وقد عبر عن هذا التوجه وزير خارجيته فؤاد الخطيب في لقائه مع الكوماندر هوغارت حسب مذكرة هذا الأخير السابق الإشارة إليها ، إن الخطيب ((بدأ عرضه قائلاً : إنه إذا اقتصرت سيادة سيده على الحجاز (أي المنطقة الغربية من الجزيرة العربية) فإنه لن

يكون في وضع مستقل ولا مكتفياً ذاتياً وذلك بسبب قلة الموارد التي ستستحصل في منطقته ، حتى في أحسن الظروف ، وأكد فؤاد على أن مثل هذا الاعتماد المستمر على المعونة الأجنبية سيسيء إلى سمعة سيده في العالم الإسلامي ، وستتضاءل قيمته ، ولن يمضي وقت طويل حتى يصبح غير جدير بالمعونة الأجنبية التي تقدم له . . . ولم يفترض الملك فقط ، حين شرع في عمليته الحالية بأنها ستقتصر على الحجاز))[١٩٩] .

ويقول هوغارت : ((سألت ما هي المنطقة والمدينة اللتان يتصورهما الملك قاعدة لاستقلاله ؟

أجاب فؤاد : سوريا ودمشق . . .))[٢٠٠]

ويعلق هوغارت على هذا الحديث بقوله : ((كنت أستطيع أن أتلمس عقيدة ثابتة تكمن وراء أقوال فؤاد ، هو أن بريطانيا العظمى ستلجأ في النهاية إلى استعمال القوة إذا لزم الأمر لتأسيس الدولة العربية ضد كل ما يحدث . . .))[٢٠١] .

لقد ساندت بريطانيا الحسين سياسياً قبل تربة وبعدها ، ولكنها لا تستطيع أن تساعده عسكرياً بالتورط في حرب داخلية في الصحراء ، كما أنها لن تذهب إلى حد فرض الحصار على خصمه ابن سعود من ناحية الخليج ، مع قدرتها على ذلك ، ما دام هذا الأخير يلتزم بعدم المساس بالمناطق التي تعتبرها حيوية لمصالحها من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه -أي عبدالعزيز ابن سعود- لم يظهر عداءً تجاهها طوال الفترة الماضية ، بل عكس ذلك هو الصحيح ، كان يظهر دائما رغبة في إقامة علاقة صداقة معها ، وإذا كانت العلاقات بين الطرفين قد مرت بفترات يشوبها شيء من الاستياء فهو نتيجة لموقف بريطانيا وليس من جانب عبدالعزيز .

فهدف بريطانيا الاستراتيجي في المناطق الخارجة عن سيطرتها المباشرة في شبه الجزيرة العربية هو أن لا يقوم وضع معاد لها من جانب، وأن يكون من يحكم قادراً على توطيد الأمن والاستقرار في المناطق الخاضعة له. وقدرة الأمير عبدالعزيز على ذلك ليست موضع تساؤل، كما أنه على المستوى الشخصي يحظى بتقدير عظيم من قبل كل من تعامل معه من المسؤولين البريطانيين وغيرهم كما أنه يحظى بثقة مطلقة في الوفاء بما يلتزم به.

إن أهمية موقعة تربة، في رأيي، ليست في جانبها العسكري وتحطيم أسطورة قوة الحسين فحسب، وإنما في أنها كشفت عن أن فترة ضبط النفس التي مارسها عبدالعزيز طوال فترة الحرب (١٩١٤م-١٩١٨م) لم تكن انتظاراً سلبياً، وإنما كانت فترة ما يمكن أن يسمى ترسيخ البنية التحتية لقوته المتنامية، فالاستقرار الداخلي الذي وطده، وكبح جماح غريزة التمرد الدائم للقبائل، والمناخ الديني الذي أشاعه منذ بدء حركته أوجد البيئة الملائمة لنجاح سياسته في تشجيع البادية على التوطن والاستقرار، فنشأت الهجر المعروفة، والتي أصبح سكانها يشكلون قوة مندفعة متحمسة راغبة وقادرة على إنزال أشد الضربات بأعدائه أينما يوجههم.

لقد حلت بريطانيا بعد الحرب محل تركيا في المناطق المحيطة بنجد، وكانت في الواقع في حيرة من أمرها في كيفية إدارة المناطق المحيطة بنجد، فقد واجهت، منذ البدء، صعوبات جمة إدارية ومادية. فحكم تلك المناطق مباشرة أثار السخط العام لدى السكان ورأوا فيه خيبة لآمالهم وخيانة لأمانيهم الوطنية، وتحول هذا الشعور إلى ما يشبه الانفجار ضد هذا الوضع الجديد، وأجلى تعبير عن ذلك هو انفجار الثورة الشعبية في مصر سنة

١٩١٩م وثورة ١٩٢٠م في العراق إلى جانب التكاليف المادية الباهظة التي أصبحت بريطانيا ملزمة بحكم الضرورة بصرفها لإدارة تلك المناطق والمحافظة على أمن مصالحها فيها مما أصبح عبئاً ثقيلاً على دافع الضرائب البريطاني(٢٠٢)*

وللخروج من هذا المأزق خرجت (بوصفة) لحكم تلك المناطق تمثلت في إقامة أبناء الملك حسين على رأس حكومات هذه المناطق ، فنصبت الأمير فيصل بن الحسين ، بعد إخراجه من سوريا على يد فرنسا ، في منصب ملك العراق . وأخاه عبدالله أميراً على ما عرف فيما بعد بشرق الأردن . وتمكنت من الحصول على حق الانتداب على فلسطين بدلاً من الإدارة الدولية . وبهذا أحكمت سيطرتها على المنطقة من رأس الخليج إلى شرق المتوسط وقناة السويس (طريقي الهند العتيدين) .

لقد توهم الملك حسين أن هذه الترتيبات ـ تعيين ولديه في العراق وشرق الأردن ـ تعني أنه أصبح ذا نفوذ حقيقي ، وأنه اقترب من تحقيق حلمه (ملك العرب) فرغم تحطيم جيشه في تربة ، وبروز قوة ابن سعود بشكل لا يمكن تجاهله ، إلا أنه كان ينظر للأمور بشكل مختلف ، فما أن ألغي منصب الخلافة في تركيا حتى رأى في ذلك فرصة طالما حلم بها ، وقبل البيعة في عمان خليفة للمسلمين (٨ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ / ١٧ يناير ١٩٢٤م)

---

* مع الأخذ بعين الاعتبار أن بريطانيا وحلفاءها الأوربيين قد خرجوا من الحرب منهوكي الاقتصاد ولولا التدخل الأمريكي في الحرب في شهر أبريل سنة ١٩١٧م الذي جاء منقذاً للحلفاء لحل الخراب الشامل باقتصادياتهم .

ومما يلفت النظر أن الملك عبد العزيز كان يدرك حقيقة هذه الأوضاع ، فينسب إليه الريحاني ، ملوك ، المجلد الأول حـ٢ ص ٤٤ قوله : ((أشبه أوربا اليوم بباب حديد كبير ، ولكن لا شيء داخل الباب)) .

وكان في ذلك كما وصفه أمين الريحاني بقوله إنه ((يهتم بسقف البيت قبل الأساس))[٢٠٣]

لقد أثارت هذه الإجراءات التي اتخذتها بريطانيا في العراق وشرق الأردن شكوك ومخاوف السلطان* عبدالعزيز بن سعود . ولم تكن هذه المخاوف وتلك الشكوك بغير أساس ، فمنذ السنوات الأولى لبدء حركته كانت بريطانيا تراقب نمو قوته بالكثير من القلق والمخاوف لأسباب تعود في حقيقتها إلى ذكريات الدولة السعودية الأولى وما شكلته من خطر على طريقي الهند . وقد أشار إلى ذلك فلبي في تقرير بعثته عن مهمة سادلير الذي بعثته حكومة الهند ((ليقدم إلى من قام بتدميرها تهاني الحكومة على ما أنجزه ، وليحثه على اتخاذ الاحتياطات الشديدة ضد إعادة إحياء السلطة (السعودية))[٢٠٤]

وقد برزت هذه المخاوف لدى السلطات البريطانية في أكثر من مناسبة في هذه الفترة ، وأشار إليها فلبي في تقريره المشار إليه بقوله ((كان المندوب السامي (في مصر) مدفوعاً بالخوف من إمكان نهضة (سعودية) للانتقاص من أي عمل يحتمل أن يقوى ابن سعود ، وكانت حكومة صاحب الجلالة تميل نحو هذا الرأي نفسه))[٢٠٥] . و((أنه لعب الخوف من النهضة (السعودية) دوراً كبيراً في حمل حكومة صاحب الجلالة على النظر بصورة سلبية في أي اقتراح يحتمل أن يزيد من قوة ابن سعود العسكرية))[٢٠٦] .

---

* في صيف سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م ((بعد أن عقد مؤتمر القاهرة البريطاني برئاسة وزير الخارجية يومذاك المستر تشرشل وتقرر أن يكون الأمير فيصل بن الملك حسين ملكاً على العراق ، عقد مؤتمر في الرياض حضره العلماء والرؤساء فقرروا أن يتخذ حاكم نجد الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ومن يخلفه بعده لقب سلطان)) الريحاني ، نفسه تاريخ ، ص ٢٧٧ .

لقد كانت بريطانيا ، بعد زوال الدولة العثمانية ، هي القوة الوحيدة على ساحة الجزيرة العربية ، التي لا يمكنه التغلب عليها ، ولا يريد الاصطدام بها . وإن كانت في حقيقة الأمر هي العقبة ((الكأداء)) حسب تعبير فلبي في تقرير بعثته[٢٠٧]، في سبيل تحقيق أهدافه وأخذ حجمه الحقيقي على ساحة الجزيرة العربية بكاملها . وقد عبر السلطان عبدالعزيز عن حقيقة الموقف البريطاني تجاهه ، قبيل مؤتمر العقير السابق ذكره لأمين الريحاني بقوله : ((يظن الناس أننا نقبض من الانكليز مبالغ* كبيرة من المال . والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقه الأعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نختلف معهم قبل أن يخلفوا معنا ، بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ، ولو تضررنا في أنفسنا ومصالحنا . . . الإنكليز مدينون لنا ، ترى الصحيح يا أستاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار أن نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الآن ؟ تراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس علي ـ علي أنا صديقهم ابن سعود ـ أحاطوني بالأعداء . أقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من أعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية . الشريف في الحجاز وابنه عبدالله في شرق الأردن ، وابنه فيصل في العراق . ما القصد من هذه الأعمال ؟ وما الداعي لها ؟ أنا ابن سعود صديق الإنكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني معاملة العدو . .))[٢٠٨]

إلا أنه في نهاية الأمر لم يكن أمام بريطانيا ، كقوة عظمى ، إلا التعامل

* كانت المعونة التي تقدمها بريطانيا ، خلال الحرب هي مبلغ ٥,٠٠٠ جنيه في الشهر . وانظر بيانات جميع ماقدمته بريطانيا للأمير عبدالعزيز خلال الحرب من أسلحة وعتاد ومبالغ نقديه في : نجدة ، فتحي صفوه ، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية ، المجلد الثالث ، ص ص٧٨٤-٧٨٥ .

مع الحقائق الموضوعية على أرض الواقع ، بهدف أول هو المحافظة على مصالحها ، وأقصى ما يمكن أن تتخذه من إجراءات في هذه المرحلة التاريخية شديدة التغير ، لإبداء استيائها هو وقف المعونات التي تقدمها لمن لا يستجب لنصائحها . وقد قبل السلطان عبدالعزيز هذا التحدي ، وتعامل مع منافسيه (الملك حسين وأمير حائل وغيرهم) كل حسب إمكانياته الذاتية وقدراته القيادية . وكان عبدالعزيز يبزهم جميعاً ، وتمكن في خلال فترة وجيزة من توحيد أقاليم الدولة التي أصبحت فيما بعد الدولة السعودية الحديثة ((المملكة العربية السعودية)) .